

محاور البحث:

- كيف تعرف أنك متعصب؟
- رغبة التملك والتعصب.
- البخل.. والتعصب.
- التطابق النفسي والتعصب.
- طريقة تلقي الحق.
- الرؤية الأحادية.
- العجز عن تحمل الخلافات.
- طرق الدفاع.
- طرق الهجوم.
- لا استسلام.
- الإفلاس الفكري.. والتصعب.
- الهجرة بين أوطان التعصب.
- تقديس الذات.
- علاج التعصب.
- مكمن الخطورة في الفكر المتعصب.



12 شعبان 1435 هـ - 10 / 06 / 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

كيف تعرف أنك مُتعصب ؟

(1) عندما ترى الحق وحده من خلال ذاتك، أو حزبك، أو جماعتك؟

(2) عندما لا تتسع نفسك، ولا عقلك.. لدراسة الرأي الآخر، واعتبار باطلاً مهما كان؟

(3) عندما تعتقد أن الحق الذي معك "حق مطلق" لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.. وإن لم تقل ذلك بلسان المقال.

(4) عندما تتورم الذات، وتلتهب.. وتشعر الحساسية الشديدة تجاه المختلفين معك في الرأي؟

(5) عندما ترفض النقد، والتصحيح، والتقييم، والتقويم.

(6) عندما تنهال بالطعن والسباب والتهويل والتخوين على كل ناقد أو مخالف، ويُتنابذ بالألقاب، والولع بتصنيف الآخرين، والتحزبات، وإدمان منهج "الإدانة والحكم" على الأشخاص.

(7) عندما تتمنى أن ينهزم مخالفك – وإن كان على نفس الملة – وأن لا يحقق أي نجاح.

(8) عندما ترتفع عدواتك للمخالف لدرجة الوشاية به للظالمين، والتشهير بسمعته، وإشعال الصراع معه، والفجور في الخصومة.

(9) عندما تتفجر مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والغل تجاه أهل الملة الواحدة.

(10) عندما تشعر بالضيق والقلق من المخالف من أهل الملة الواحدة، وتشعر بالراحة وسعة الصدر وخفض الجناح تجاه الملل الأخرى أو أهل العلمانية !

واحدة فقط من هؤلاء تكفي لجعلك متعصباً !

* * *

رغبة التملك والتعصب

أقوى رغبة في الإنسان على الإطلاق هي: الخلود والتملك (أن يكون له من الملك ما يشاء) ومن هنا أدرك إبليس اللعين ثغرة الضعف البشري على الإطلاق، فلما وسوس لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه : 120] فوقع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في المعصية، ولما نزل الأرض.. ضاعت فكرة الخلود على الأرض بالموت، وأصبح الخلود في الآخرة فقط بعد أن يتميز الناس: فريق في الجنة، وفريق في السعير ! وبقيت رغبة "التملك" مع الإنسان طوال رحلته على الأرض.. لا تتوقف عند حد! وهي: أساس الضعف البشري كله، ومن أجل المُلك تُرتكب كل الآثام والموبقات، وفي النهاية لن يملك الإنسان شيئاً، فالملك كله لله، وكله راجع إلى الله في أوله، وفي منتهاه.. والإنسان بينهما مُمتحن ومُبتلى !

وإن الملك الحقيقي لابد وأن يترابط بشكل أساسي بالخلود، وإلا فلا ملك ! وانتفاء الخلود في الدنيا يجعل من كل ملك فيها.. مجرد صورة ظاهرية مؤقتة. فإذا استقر الملك – في الدنيا – فسيفنى الإنسان ذاته، ويبقى الملك لله جَلَّ جَلَالُهُ وحده بلا شريك.

يُولد الإنسان ولديه هذه الرغبة الفطرية، تجدها حتى في الطفل الرضيع، وهو يتعلق بأشياء ليس لها قيمة، ويحسبها خالصة له، ويكون لديه شهوة الحصول على الأشياء، ورغبة التملك فيما لدى الغير ! كغيرته الشديدة من الطفل القادم بعده وحرصه على الرضاعة وإبعاد الرضيع ولو كان هو قد فطم! وربما كانت الحكمة الإلهية من تكوين الإنسان على هذه الصورة أن تستمر الحياة، ويتفاعل الإنسان معها، ولا يبقى قعيداً لا حركة فيه ولا حياة.. إذ كيف يكون وهو خليفة الله في الأرض؟!

يأتي التوجيه التربوي الأسري – ومنذ اللحظات الأولى – من عمر الطفل ليراقب نزعات الطفل وتوجهاته.. ويعملان على تهذيب رغبة التملك لتبقى في إطارها الصحيح، الذي يؤدي به الإنسان خلافته على الأرض، فيعمل التوجيه الأسري والتربوي على تخفيف تمحور الطفل حول ذاته، ومحاولة الخروج التدريجي من الدوران حول الذات، ومن ضبط شهوة التملك التي لا تنتهي عند حد! ويأتي ذلك من عدم

الاستجابة لكل رغبات الطفل في الحصول على الأشياء، ومن دعوته لمشاركة إخوته فيما يملك، ودفعه إلى بذل الهدايا والعطايا من الأشياء التي تخصه، ودفعه كذلك لأن يعطي من ماله "مصروفه" للفقراء، وأن يعطهم بنفسه عن طيب خاطر، وأن يُدفع الطفل لمشاركة الأطفال حوله في الألعاب والأعمال الجماعية، والمشاركات التطوعية.. التي – مع الوقت – تخفف من حدة البقاء داخل الذات، والاكتفاء بالذات، وعدم رؤية شيء غير الذات !

وإذا كان الأمر كذلك منذ الطفولة، فإن الأمر يشتد في الصبا والشباب.. وكذلك يقوى معه التوجيه التعليمي والتربوي، نحو دور الإنسان على الأرض، ومعنى الرسالة، وكيفية قيام الإنسان بها.. الأمر الذي مع التربية الصحيحة يُخرج "**الإنسان الرسالي**" الذي يكون بالفعل:

(1) قد خرج من ذاته، إلى العالم من حوله.

(2) أن تكون نفسه اتسعت لرؤية الحياة من كافة أبعادها.

(3) أن يكون لديه القدرة على احتواء الآخرين، والكون من حوله.

(4) أن يعمل للرسالة لا ينتظر منها حظاً مادياً أو معنوياً.. لا شيء سوى رضى الله سبحانه.

وعند الوصول إلى هذه النقطة تكون التربية قد أدت مهمتها بنجاح، وضبطت سلوك الإنسان، وطاقاته، ومشاعره، في الاتجاه الصحيح.

ويكفي أن نعرف أن بقاء الدوران حول الذات.. جعل إبليس اللعين – وهو في حضرة المقام العلوي الإلهي في ملكوت الله الواسع – لا ينظر إلى "الأمر الإلهي" بل نظر إلى "ذاته" وخيريته عن المأمور له بالسجود.. آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وبها استحق اللعن إلى يوم الدين، والخلود في جهنم !

ولما تغيب التربية الصحيحة من هذا المنظور والتصور.. ويكون التوجيه الأسري والتربوي والنظم التعليمية لا تنتبه لذلك، بل ترسخ "شهوة التملك" التي ترسخ الالتصاق بالذات، والتمحور حولها..

يتضاعف التأثير السلبي لشهوة هي بالأصل أقوى رغبة في الإنسان، وترسيخها بدلاً عن تهذيبها يُعقد شخصية الإنسان بصورة يصعب أو يطول علاجها.. فيخرج إلى الحياة "**الإنسان الذاتي**" الذي:

(1) التصق بذاته، وأصبحت هي محور حياته ووجوده.

(2) ضاقت عليه نفسه، ولم يعد هناك مساحة للأخرين إلا في إطار حب التملك.

(3) لا ينظر للأخرين إلا في إطار المصلحة، وما يخدم ذاته.. سواء أشياء مادية أو معنوية.

(4) يبحث عن حظه المادي والمعنوي الآني، في كل حركة، وسلوك.

(5) يقيم "الحق" من منظور الذات، وما ينفعها ويضرها: فما ينفعها – وبصورة ظاهرية محدودة – هو الحق، وما يضرها – وبصورة ظاهرية محدودة – هو الباطل!!

(6) القدرة على "التبرير" اللامحدود واللامقطوع للذات.

(7) وأخيراً: يصبح غير مؤهل لحمل "الرسالة" لأن الرسالة تتطلب التمحور والدوران حولها.

ومن هنا يبدو أن نشأة التعصب تبدأ من مرحلة مبكرة من عمر الإنسان، وقبل التعرف على "الأفكار والأيدولوجيات المختلفة" وأن التعصب يبدأ أولاً: بحب التملك ثم الالتصاق بالذات ثم ينشأ الإنسان المتعصب لذاته. ويبدو كذلك أن كل من لم يترب "التربية الرسالية" التي تهذب شهوة التملك، وتوجه الإنسان نحو الرسالة.. إنسان معرض للانزلاق إلى "التعصب"، ويكون غياب التربية الرسالية دالاً على أن محيط البيئة الاجتماعية ما هو إلا ساحات من التعصب الذاتي، وساحات من التنافر، والتحاسد، والتباغض..

وينشأ "الحسد والبغضاء" كنتيجة طبيعة لجنوح "شهوة التملك" فالناس ستظل في تفاوت فيما تملك، ومن لا يملك سيحسد من يملك، وينشأ التنافر، والحروب بين الذوات المختلفة..

تبدأ الحرب بالحسد وتنتهي بالقتل، ولم يكن غريباً كذلك أن يكون ذنب البشرية الثاني سببه "الحسد" الذي أدى لقتل الأخ لأخيه ! بعد أن وقع ذنبها الأول بسبب التملك ! ولم يكن غريباً كذلك أن يكون من أكبر ذنوب البشرية بعدها رفض الهداية حال معاينة الهلاك !! وسببه "التعصب للذات" عندما رفض الابن يد أبيه الرسول، وهي ممدودة له بالنجاة.. بينما هو يقول: ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ﴾ [هود : 43] ويا للعجب! إنها لحظة الهلاك، ومازال يُكابر.. وهكذا تنتفخ الذات وتنتفش وتتورم حتى تُهلك صاحبها !!

إذن، الأمر ليس بهين، ولا بسيط.. ومروراً بالمجازر الوحشية، والحروب المدمرة في تاريخ البشرية.. ستجد "التملك والتعصب والحسد" أحد أهم البواعث والدوافع النفسية التي تؤدي لهذا الدمار الهائل !!

❋ ❋ ❋

ومع عدم خروج الإنسان من ذاته، والالتصاق بها.. إضافة إلى رغبة التملك؛ لابد وأن يؤدي ذلك إلى "البخل" ولهذا كانت ضرورة تعليم الطفل منذ نشأته "حب العطاء" وفي هذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: 16] فالشح لابد وأن يقع في النفس، ولابد من الوقاية والحذر منه!

والبخل هنا معناه عدم الانفاق من أجل الرسالة، وابتغاء مرضاة الله ! ويكون الإنفاق فقط من أجل إرضاء الذات، أو إرضاء مجتمع الذات، ويظل بخيلاً من "ينفق" رئاء الناس.. لأنه يبخل - يمنع - عن نفسه الحق والخير: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ ﴾ [النساء: 38].

وهذا البخل مردود على النفس لا غيرها، والعطب يصيبها هي بالأصل.. فالإنسان البخيل هو الذي يحتاج للناس لينفق عليهم، لا العكس ! لأنه لابد وأن يتقي هذا الشح بالإنفاق، فإن عجز عن ذلك: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [محمد: 38] ويصبح "البخل" سجناً للذات في الدنيا - فوق سجن الذات للروح! - وطوقاً يقيد صاحبه في الآخرة: ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: 180]

والنفس التي تتحرر من ذاتها، وتضبط حركتها لتدور حول الرسالة.. يصبح الإنفاق لها محبباً، وتشعر - وهي تنفق - أنها تأخذ لا تعطي.. وهي تأخذ على الحقيقة - مقابل الإنفاق وعدم البخل - تأخذ مشاعر ورضى وطمأنينة لا تقدر بثمن.. كما قال تعالى: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131]

والرزق هنا كما يشمل الأشياء المادية، فهو يشمل كذلك الأشياء الروحية والمعنوية.. فإن راحة البال، وهدوء النفس، والقناعة، والرضى، وطمأنينة القلب، ومشاعر الحب الصافي.. أشياء لا تُشترى بملايين الدراهم !

وجزاء الخير هذا لمن يُخلص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا شريك له، أما المتعصب الذي يبخل عن رسالته وربه، ولا ينفق إلا إرضاء للذات، فهو يبخل عن نفسه، وهو "الفقير" مهما حصل من أموال وثروات !

ويكون الإنفاق أسلوب حياة لا مجرد توقيت معين، ولا صورة معينة: ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾[الطلاق: 7] مما آتاه الله ينفق، وعطاء الله لا يتوقف، حتى البسمة والكلمة الطيبة.. تكون إنفاقاً وصدقة !

أما البخل فسيزيد من وطأة التعصب للذات، والالتصاق بها، وتقييد الشعور بها ! ومجرد انحسار الشعور الإنساني حول الذات.. يُخرج الإنسان من إنسانيته ليتحول إلى مجرد قطعة آدمية مجردة الإحساس بالوجود حولها، غليظة الشعور والحس! فيغيب معنى الأمة، والجسد الواحد، والبنيان المرصوص..

ومع انحسار الشعور حول الذات؛ يُستسهل كذلك إهانة الإنسان، وإهدار كرامته، والنظر إليه على أنه مجرد رقم عددي في قطيع كبير ! الأمر الذي يلغي معنى خلافة الإنسان عن الله في الأرض، وتُباع آيات الله بثمن قليل: ﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: 9]

* * *

التطابق النفسي والتعصب

إن الإنسان مفطور على "الاجتماع" والعيش في حياة اجتماعية مشتركة مع باقي البشر، والرسالة جاءت لتحتوي كل البشر مؤمنهم وكافرهم؛ وتقيم فيهم الحق والعدل الرباني.. وترد الحق للكافر لو كان له، وتُوقع العقوبة على المؤمن إن كانت عليه. ونلحظ أن الرسالة جاءت كأنها لباس للفطرة السوية، وعلى مقاسها بالضبط، وأي خلل يحدث في اللباس "الحياة" يكون إما لانحراف الفطرة عن السوية، وإما لعدم إدراك الرسالة إدراكاً صحيحاً.

ولكن.. إذا كان الإنسان مفطوراً على "الاجتماع" فكيف للمتعصب لذاته أن يجتمع مع غيره ؟!

لكي يلبي الإنسان "رغبته" في الاجتماع فإنه يبحث عن "المتطابقين نفسياً" معه ليشكلوا بوجودهم "ذاتاً كبيرة" يشعرون فيها بالراحة والسعادة، ويمنعون أي أحد يحاول الاقتراب منها ولو حتى بإثراء التنوع، فهذه "الذات الكبيرة" لا تقبل أي شركاء مختلفين عنها، إنها تشعر تجاههم بالتنافر والعدوانية والتطفل على هذا الوجود..!

ويشكل "التطابق النفسي – الذات الكبيرة" شكلاً من أشكال الوطن الذي يحمل هوية ولغة وجنسية وحدوداً، ولا يُسمح لأحد بالولوج إليه، ولأن طبيعة النفس الإنسانية بها من التنوع والاختلاف الكثير.. كما هي طبيعة خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تتشكل في المجتمع الواحد واللغة الواحدة، أوطان للذوات كثيرة، كل منها متحفز للدفاع المستميت عن "وطن التطابق النفسي" ولأن كان التعقل السياسي يقتضي التعاون بين الأوطان المتجاورة والمختلفة ! فإن هذا التعقل ليس بموجود في "أوطان التطابق النفسي" لسبب بسيط: إنها لا تعترف بوجود الأوطان الأخرى ! ولا تضفي عليها شرعية حياة.. ذلك لأن "المتعصب" يعتقد اعتقاداً جازماً بوجوب أن يكونوا كل الناس على نفس "تعصبه" وشكله النفسي والواقعي..

وهو بالطبع لا يشعر بالراحة والسعادة إلا مع "المتطابقين معه نفسياً" ويشعر بالغربة والتيه بعيداً عنهم أو في غير عالمهم.. حالة من الطفولة المشوهة التي تعجز عن مواجهة تنوع الحياة واختلافاتها !

ويشعر أهل "التطابق النفسي" برغبة جامحة في إزالة باقي المتعصبين الذين ليسوا على نفس تعصبهم، ويشعرون تجاههم بعدوانية لا تكون حتى للمحتل القاتل ! بل إنهم يفسرون كل فشل لهم كنتيجة لمن ليسوا على نفس تطابقهم.. ربما ليس هروباً من مواجهة الفشل بقدر ما هو "كراهية" للآخرين من أوطان الذوات المختلفة !

❋ ❋ ❋

طريقة تلقي الحق

الرسالة لا تقبل التجزئة، وتريد لمن يحملها أن يحملها كلها، وأن يكون حاملها غير متعصب لذاته أو حزبه أو جماعته.. بل لا يكون متعصباً بالأساس، فلا يكون إلا خادماً لها ولا يدور إلا حولها، ولا يعمل إلا من أجلها.. وعندما لا يكون الشخص المتعصب بهذه الصفات، فإنه يكون غير مؤهل لحملها.. بل غير متحمل ولا مستوعب للحق الذي تحمله !

وبالتالي يؤدي التعصب إلى تجزئة الحق، ليتوافق مع نفسية المتعصب.. ويكون الغرض من ذلك ليس هو "الحق" إنما هو حمل ما تريده الذات منه، وما ترغب فيه.. وتترك باقي الحق، وربما تعاديه وتحاربه !

وتأتي النفوس المتعصبة الأخرى لتأخذ نصيبها من "الحق" الذي تشتهي وتريد، وتترك ما لا يعجبها، وتعاديه وتحاربه.

ومن هنا تنشأ "عداوة" بين قوم نالوا الحق من مصدر واحد ! سبب هذه العداوة ليس هو الحق.. إنما في النفوس المنحرفة التي أخذت وتركت وفقاً لأهوائها !

ومن هنا تنشأ "الأيديولوجيات" والأحزاب والجماعات.. ويمثل "التعصب والتطابق النفسي" أهم رافد لها، وتحمل كل أيديولوجيا جزء من "حق" يُمثل كل منطقها وفكرها، ويتلقاه الاتباع على صورة "الحق المطلق" الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !!

ومن هنا تنشأ.. الرؤية الأحادية.

❋ ❋ ❋

الرؤية الأحادية

إن طاقة العقل في الإنسان طاقة محايدة، تعمل وفق ما تتلقاه من أفكار ومعلومات.. والعقل يميل إلى التعامل مع الأشياء "المطلقة" حتى يسهل عليه النظر والتقويم والاختيار، فالأشياء "النسبية أو الجزئية" ستتطلب منه جهداً عقلياً كبيراً، وتوسيعاً للرؤية، ومرونة دائمة في النظر إلى الأشياء، وكيفية للربط بين جميع زوايا الرؤية، ثم في النهاية رسم صورة يمكن تفسيرها !

ولما يتلقى عقل المتعصب جزءاً من "حق" على أنه كامل الحق.. وتفسير مطلق لكل شيء، تنشأ الرؤية الأحادية الحادة لكل الأشياء مهما بلغ تنوعها ! ويصبح تفسير كل شيء من منظار ما تلقاه العقل من "حق مجزءاً أو محدوداً".. هكذا يعمل العقل. ولهذا سيرفض عقل المتعصب أي عملية "إدخال" لحق آخر، لأنه اعتبر أن ما أدخله أول مرة " كامل الحق المطلق" وعليه فلا مجال لشيء آخر، بل وكل شيء آخر هو عين "الباطل"! ولما يطول بالعقل هذه الحالة.. يتكلس، ويصعب تغير ما به حتى ولو دونها الموت، فهو يُفضل الموت على أن يعيد ترتيب العقل مرة ثانية، فلقد أصبح ما أدخله أول مرة ليس مجرد حالة عقل يبحث عن حق واكتفى بما معه، بل أصبح هذا الإدخال "مُسلمات" هي جزء من الإنسان لا تنفصل عنه، وتعمل بصورة آلية !

وهنا يأتي الدور الخطير للتربية العقلية، التي تحفظ الإنسان من هذه الحالة الخطيرة.. التي تؤدي بالكثير من الناس أن تموت على الباطل ولا تغير ما بعقلها وقلبها .. فلقد مات عم النبي ﷺ ، والنبي الكريم يدعوه للإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعمه يعرف أنه نبي.. لكنه لم يؤمن نتيجة هذا التكلس، وهذا التعصب للقبيلة !!

ومن الرؤية الأحادية ينشأ.. العجز عن تحمل الخلافات والاختلافات.

* * *

العجز عن تحمل الخلافات والاختلافات

ولأن الاختلاف بين البشر سنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الخلق، ولأن الخلافات في النظر والرؤية تقع نتيجة الاختلافات النفسية والطاقات العقلية بين البشر، وهي مسألة مفيدة بالنسبة لحملة الرسالة، ولا تشكل أدنى عائق أمام حمل الرسالة.. وإلا لخلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الناس متطابقين، فالرسالة ربانية، والخلق عبيده.. وما جعله لهم من رسالة.. جعله مناسباً لطاقتهم واستعداداتهم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]

ولكن في حالة التعصب لا يوجد شيء اسمه "اختلافات" فكل اختلاف عند المتعصب باطل، وإنه ليعجز أن يتحمل خلافاً.. ليس عيباً في قدرته العقلية، ولكن لأن العقل المتعصب لم يغذه أحد بصورة تجعله في حالة تآلف ومحبة مع المختلفين معه.. بل جعلته في حالة من التحفز والترقب والشك والدفاع والاتهام والهجوم..

وكل خلاف يعني اعتداء على عقل المتعصب، وعملية ارباك له.. تفقده التوازن، فلا يشعر بالراحة من المختلفين معه، فيهرع إلى "وطن الذات الكبيرة" عندها يحط رحاله، ويطفأ عقله.. فالجميع متفقون، ونحن أهل الحق.. وكل شيء على ما يرام !!

❋ ❋ ❋

طرق الدفاع

يميل المتعصبون أصحاب النفوس الوديعة إلى عملية دفاع فقط عن وطنهم، لا الهجوم على أوطان الآخرين ! ويُأمنون وطنهم من أي عملية نقد أو تقويم أو تقييم أو مراجعة أو تصحيح، لأن ذلك يعني ببساطة "انهيار" الوطن كله.. فإن هذا الوطن تم تأسيسه على أساس "التطابق النفسي"، وعلى قاعدة من "حق جزئي مطلق"، فكيف يتم مراجعة "المطلق"؟! فمجرد مراجعته تخرجه من حالة "الإطلاق – المطلق" إلى حالة "النسبية – النسبي" لذا يكون الخوف من النقد والتقويم مسألة مرعبة ومقلقة غالية القلق لأهل هذا الوطن.. لأن أي نقد وتقويم مهما كان عادلاً وصحيحاً سيُخرج أخطاء وربما كوارث ! الأمر الذي يُزلزل "المطلق" ويجعله قيد المراجعة والتصحيح..

تتم عملية التأمين بصورة محكمة تمنع حدوث أي خلل، وذلك من خلال:

(1) الطرد الفوري لأصحاب العقول التي تخرج عن "الإطار" المسموح به وتحاول النظر خارج الوطن.

(2) القضاء على الطاقات الشابة المبدعة، التي بطبيعتها تبحث عن التجديد، وتفتش في خبايا الحياة.

(3) تصميم الهيئة العليا للوطن بحيث لا يدخلها إلا أبناء الوطن المخلصين غالية الإخلاص، ولا شك في أن عقولهم يمكن أن تتغير أو تقبل أفكاراً جديدة.

(4) تجهيز عريضة اتهام وتشهير لأي أحد سواء من داخل الوطن أو خارجه.. يحاول الاقتراب من ثوابت الوطن، أو يعبث بها.

وتتم عملية الفخر بالوطن من خلال:

(1) التضحيات والبطولات المستمرة التي يقوم بها الوطن.

(2) تضخيم تكالب المخالفين، وتحميلهم كل مصيبة تقع.

(3) تقديم النوابغ العلمية، والجهود الفردية على أنها فخر صناعة الوطن !!

❋ ❋ ❋

طرق الهجوم

يميل المتعصبون من أصحاب النفوس العنيفة إلى عملية الهجوم والإغارة على أوطان الآخرين، ولطبيعة نفوسهم يكونون أكثر حدة، وجرأة في الهجوم، وفي هدم ثوابت أوطان الآخرين.. فوطن أصحاب النفوس العنيفة يكون هائجاً دوماً، واجتماعهم يمثل مزيداً من القوة، والتحفز، والرغبة الدائمة في الهجوم !

وأما النقد والتصحيح والمراجعة فهو ببساطة يعني بالنسبة لهم "الكفر" من يحاول أن يمس ثوابتهم فهذا عين "الكفر" ! وما أسهل إطلاقه، وهذا "التكفير النفسي" رد فعل طبيعي للنفوس العنيفة التي مس أحد ثوابتها وحقها المطلق! وسيصبح الناقد لها في مرمى الهجوم، والتشهير، والتبديع، والتفسيق، والتجهيل، والعمالة، والخيانة، وكل شائنة في حياة البشر.

وتتم عملية تأمين وطنهم من خلال:

(1) إلقاء تهمة التكفير لمن يحاول إقرار إمكانية الخلاف معهم، ويأتي التكفير كرد فعل للكفر بوجود وطنهم، وبحقهم المطلق الذي اعتقدوه.

(2) طرد من يظهر عليه لين أو هدوء أو صبر في مواجهة المخالفين.

(3) اعتبار كل مخالف لهم إما متخاذل أو ضعيف أو خائن أو مُنظر.. على أساس أنها سُبة !

(4) استعداء الجميع، حتى الصديق والمحايد والمحب! فلا مجال أن يدخل في هذا الوطن ما ليس منه.

(5) الرغبة في تدمير المحيطين بهم من أوطان الآخرين.. حتى وإن كانوا على نفس ملتهم.

وتتم عملية الفخر من خلال:

(1) التضحيات والبطولات والعلميات العسكرية المستمرة.

(2) معايرة الآخرين بعدم قدرتهم على الهجوم.

(3) تفردهم بقدرتهم على حمل السلاح.

(4) ثباتهم رغم شديد الحرب عليهم.

* * *

ومن هنا يسهل الإجابة على هذا السؤال المحير:

لماذا تقع عملية هجوم بين الأوطان المختلفة للمتطابقين نفسياً، وهم على ملة واحدة.. بينما يسلم منهم "العدو" الذي يحارب "كل" الملة ؟!

وذلك لأن أصحاب الأوطان المختلفة.. عندما رجعوا إلى ملتهم ورسالتهم لم يحملوها كلها، إنما حملوا ما يشاءون منها طبقاً لأهوائهم.. وأخذوا وتركوا كما شاءون، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.. فما هو أشد خطورة فيه: هو أن عملية الأخذ والترك والاختيار سُميت "الحق المطلق"، وعليه فعندما يأتي المتطابقون نفسياً من وطن ما، ويأخذون من الرسالة ويسمون عملهم هذا "حق مطلق" ويأتي آخرون من نفوس متطابقة مختلفة عن سابقيهم ويأخدون من الرسالة ما يشاؤن ويسمون عملهم هذا "حق مطلق" يعني: "تعدد الحق من مصدر واحد"، ويعني أن هناك خللاً جسيماً وخطيراً إما فيما سمي "حق مطلق" وإما في طريقة التعاطي نفسها مع الرسالة ! وأي خلل ولو بسيط تجاه "حق مطلق" يُخرجه عن هذا المسمى ! ومن تعدد هذا الحق تنشأ عداوة بغيضة تملأ كل الأوطان.. تُستحل فيها الدماء، ويُستسهل فيها القتل.. ليس دفاعاً عن الحق.. كلا، بل دافعاً عن الذات !

ومجرد الإعانة على قتل مسلم، ولو بشطر كلمة.. تخرجه من رحمة الله التي وسعت كل شيء! فقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ"** [سنن ابن ماجة/2612]

وأما عندما يصل الأمر إلى أن يُقتل المؤمن عمداً؛ فهذه هي الحالة التي تُوجب له الوعيد الشديد، ويحل بها غضب الله جَلَّجَلَالُهُ، وعذابه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [النساء: 93]

وكشف القرآن الكريم عن السبب الحقيقي لهذا الصراع والاختلاف، أنه يقيناً ليس بسبب الرسالة، ولا العلم، ولا الدفاع عن الحق ! بل بسبب البغي والظلم الذي أحد أشكاله "الانتصار للذات، والتعصب لها" فقال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية: 17]

ولقد وقع صراع بين بعض أتباع المذهبين الأشعري والحنبلي إبان فترة "الملك العضوض" وصل لحد القتال! والوشاية إلى الحكام الظلمة، والتزلف للظالمين من أجل منصب الفتوى والقضاء! كما وقع في واقعنا المعاصر أمثال ذلك ! وهذه الحالة لا يمكن أن نقول عنها حالة دفاع عن الدين أو الرسالة.. في حين وصل الأمر لحد القتال بين أصحاب "الملة الواحدة" الذي يجلب لصاحبه الخلود في النار!

ولا عجب عندما يسارع هؤلاء جميعاً ليستقووا بعدو الملة كلها، لينصر فريقاً على فريق.

ومن هنا أدرك عدو الملة، ثغرة أكبر من آلاف الجيوش!!

إنه يعادي الجميع، ويرغب في قتل الجميع، وفي هدم الملة كلها على أهلها.. ولكن ماذا يحدث لو "استغل" حالة "العداء" هذه في "ضرب" المختلفين ببعضهم، وأن يأكل بعضهم بعضا.. فينتهوا جميعاً في النهاية في حرب تدمير ذاتي للملة كلها، دون أن يطلق رصاصة واحدة أو تنزل من جنوده قطرة دم؟!!

وبالفعل استخدم العدو هذه الثغرة، ودخل منها.. فأيد هذا مرة، وأعان هذا مرة، وسمح لهذا بالمرور مرة، ووقف لهذا مرة، ووجد في الأمر تسلية، ومتعة.. فقرر إنشاء أجهزة متخصصة لعملية "حرب التدمير الذاتية" وأجهزة للمراقبة والاستطلاع، وأجهزة للرصد والتوجيه والإعلام، وأجهزة لتزكية الخلافات وتوسيع رقعتها.. كلها خدمة لهذه الحرب التي لا تكلفه سوى التأييد مرة لفريق، والعداء مرة لفريق..! لدرجة أنه في لحظات الخطر على عدو الملة الواحدة، والخروج عن "الاستراتيجية" التي يرسمها.. هو الذي يأتي للصلح بين المتخاصمين من أبناء الملة الواحدة !!!

❋ ❋ ❋

لا استسلام

قد يحاول البعض علاج التعصب من خلال البرهان فيقول: ماذا تعتقد وتؤمن؟ إذن.. لنجرب ولننتظر لنرى جميعاً ما ستؤول إليه أفعالك، ونجعل الحكم هو مآل فكرك في عالم الواقع؟

قد يبدو منطقياً وبديهياً هذا التصور، أن تقول لأحد إن الشمس ستشرق من هذه الجهة، والآخر يقول العكس.. فيتفقان على مراقبتها ليعلما من صاحب المنهج الصحيح، ولكن هذا للذي يبحث عن الحق، لا الذي يدافع عن ذاته !

فمهما بلغت الكوارث والمصائب جراء فكر المتعصب، فهذا بالنسبة له ليس إلا دليلاً على صحة منهجه! فأشد الناس بلاءً الأنبياء !! ويخلط بين الابتلاء والعقوبة، وإن لم تنجح هذه الحيلة في عملية "الدفاع عن الذات"، ألقى باللوم كله على أعدائه الذي يكرهونه لأنه يحمل "الحق المطلق"!! الحيل النفسية في الدفاع عن الذات عجيبة وغريبة ولا تتوقف عند حد!! ولا يمكن أن يستسلم عندها الإنسان، فدوماً هناك "تبرير" وهناك "مخرج" للنفس مادامت في هذه الحياة! حتى يوم القيامة تأتي "تجادل" عن نفسها.. يا الله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾[النحل : 111]

ولم يكن غريباً كذلك أن يطلب القوم الكافرين من أنبيائهم المعجزات الخارقة تلو المعجزات.. رغم أنهم في قرارة أنفسهم مؤمنون بالنبي وصدق دعوته: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل: 14] ولكنهم يتمحلون ويتحايلون – على أنفسهم – ويرفوضون ويتعصبون فلا تنفعهم المعجزات.

ولهذا لما جاء الإسلام – الرسالة الخاتمة – وأراد أهل القبيلة والعصبية الجاهلية أن يعيدوا كرة الأقوام قبلهم؛ كشف لهم الإسلام عن كل خبايا وخبث أنفسهم، ولم يستجب لمعجزة خارقة كالأقوام قبلهم: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[الحجر : 14، 15]

وأراد الإسلام أن ينفذ إلى عمق النفس الإنسانية ويكشف عن طبيعتها وأصل الداء، وطريق التحرر من الذات.. بالاستسلام لله الواحد القهار، وبحمل الإنسان – خليفة الله في أرضه – لرسالة الله .

فكان القرآن الكريم الذي يربي الإنسان، ويضعه على صراط الله المستقيم، ويقوم نفسه التقويم الصحيح هو المعجزة الحقيقية، وهو الرحمة كلها التي أرداها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لهذا الإنسان !

لذا، فصاحب "العصبية الذاتية" لا يستسلم لمجرد وقوع كوارث بسبب جماعته أو حزبه.. إن كل هذا حتى لا يدفعه إلى "المراجعة"، لأنه لم ير بعد أو لأنه لا يرى إلا من خلال ذاته.. وذاته تبرر وتطهر ساحتها دوماً ! ولذا فالعلاج يبدأ من: كسر العصبية وتحرير الإنسان منها، وليس معالجة ظواهرها وأعراضها.. ومن يحاول معالجة ظواهرها فقط! أمر أشبه بمن يحاول أن يقنع المجنون أنه مجنون.. قبل علاجه !

❋ ❋ ❋

الإفلاس الفكري.. والتعصب

لابد وأن تحدث حالات من "الإفلاس الفكري".. يُسببها التعصب؛ نتيجة "التخلي عن الرسالة"، وعندما يحدث هذا الإفلاس يبدأ الظهور الخفي "للفكر القدري الاتكالي".. الذي ينتظر الخوارق ومعجزات لتنزل من السماء! لأنه أدى كل ما عليه، وليس هناك شيء يحتاج إلى توفية أو تصحيح أو علاج أو مراجعة أو تغيير !! فيعوض حالة الإفلاس بـ "القدر الكوني" هروباً من "القدر الشرعي".. ويُحيل كل ما هو مطلوب منه، وما يجب أن يغيره بنفسه وبأمته إلى "نهاية الحياة، وظهور علامات الساعة الكبرى" حيلة أخرى من حيل النفس، والدفاع عن الذات! والكِبر عن تصحيح المسار، وحمل الرسالة كاملة، والاعتراف بالذنب، والتوقف عن تبرير الخطأ، والتوبة من التعصب، وتقطيع الحق وفقاً لهوى النفس... إلخ من أمراض الاستبداد، والجاهلية والتعصب.

وإن أحداث آخر الزمان بكل مشاهدها لن تخرج عن "السنن الإلهية" وستمضي في طريق الصراع بين الحق والباطل إلى نهايته.

ولهذا جاء التوجيه النبوي الشريف: عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا ، فَلْيَفْعَلْ"** [مسند الإمام أحمد/ 12736] .حتى اللحظات الأخيرة.. النهائية على الأرض، مأمورون بالقدر الشرعي، واتباع السنن، لا اتكالية، ولا هروب، ولا تكاسل.

وإن القضية ليست في ظهور "مهدي" في قومٍ أخلاقهم هي أخلاق العصبية الجاهلية.

فهم – بالطبع – بمجرد ظهوره "سيقتلونه".. إن القضية هي معالجة "أمراض وأخلاق" هذا التعصب.

فلكل قومٍ "مهدي" و"دجال" الدجال: يجعل جهنم.. هي الجنة، والمهدي: يدعوهم إلى صراط الله المستقيم؛ فيقتلونه ! ثم ينتظرون مهدي آخر الزمان !!

وستمضي السنة إلى يوم الدين: ﴿ إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] فما يجب تغييره هنا في هذه الحالة: معرفة أسباب الإفلاس – مواجهتها – عدم تبريرها – البحث عن الرسالة..
فالإفلاس يعني: الانحراف عن الرسالة – عدم انتظار معجزة تنزل من السماء.

وعندما يُغير الإنسان ما بنفسه من هذا الفكر، يتغير إحساسه وشعوره والوجود من حوله، وعندما يتغير ما بـ(أنفس المجتمع) يتغير واقعهم.

❊ ❊ ❊

الهجرة بين أوطان التعصب

تحدث في حالات الانهيار الكبرى، والهزائم الواقعية والنفسية المتتالية أن تتشكك النفس في "وطن الذات الكبير" ذو التطابق النفسي"، ومع انفتاح وسائل الاتصال، وتطاير الآراء هنا وهناك؛ يدخل "الشك" في "الحق المطلق" الذي انبى عليه "الوطن النفسي الكبير"، وما أن يدخل "الشك" ينهار الوطن، وتعاني النفس في حالة من "الهزيمة النفسية" التي تلعن الوطن، وتلعن كل لحظة عاشتها في هذا الوطن المخادع، تلعن فكره، وحقه، وباطله.. بل وتريد أن تساهم في هدمه!

هذه الحالة من "الهياج" النفسي التي جاءت كرد فعل للهزيمة التي تعرض لها الوطن، لا تعني مراجعة، أو إفاقة، أو تصحيحاً، أو تقويماً.. كلا، بل تعني هروباً من الاعتراف بالهزيمة، وإلصاقها بذات الوطن الكبيرة، التي كانت النفس الهاربة أحد لبناته.. أي: أحد الحيل النفسية للدفاع عن النفس، والهروب من البحث والتفتيش في الذات وفي الواقع عن أسباب الهزيمة..

والحقيقة إن العيب الكبير ليس في الهزيمة، إنما العيب في الفشل من معرفة "أسباب الهزيمة"، والعجز عن "التصحيح والتسديد والتقريب" !

وتأتي الهزيمة من الأوطان المتحركة في ميادين الحياة، أما الأوطان الساكنة التي لا تتحرك.. فلا تتعرض لهزائم لأنها لا تخوض معارك ابتداء، فتكون أكثر سكوناً واستقراراً أو موتاً بمعنى أدق! ويغري البعض هذا "السكون، وعدم الهزيمة" بصحة ما هم عليه، ودليل صحة وقوامة المنهج، وما هو إلا سكون الموتى!

الشعور بالهزيمة مُهين، والذات مجروحة، فلا بد من تعويض هذه الهزيمة بالانتقال إلى "خصوم" هذا الوطن المهزوم، والتحول النفسي والعقلي نحو "حقهم المطلق" وهنا تنتقل "العصبية" من الوطن المهزوم إلى الوطن الجديد بجنسية جديدة، وبنفس العصبية مع تغيير فقط في القناعات والمسميات، بل وربما يكون أشد عصبية من أهل الوطن الجديد تعويضاً للذات المجروحة !

وهكذا بقي المرض – ينتقل بين الأوطان – بلا علاج !

* * *

تقديس الذات

صاحب الرسالة دوماً يبحث عن النقد، والتقييم والتقويم.. لأنه:

(1) دوماً في حركة مستمرة بالرسالة.. وكل حركة لابد لها من تقييم ومراجعة وتصحيح.

(2) حريص أشد الحرص على أن تكون الرسالة بلغت كاملة، وقائمة كاملة.

(3) يخشى أن يصيب عمله هوى أو جهل أو شقاق أو نفاق.. فيتجه إلى عملية النقد الدائمة بل وينشأ لها المؤسسات الخاصة، والعلوم المستحدثة، والعقول الكبيرة، وعملية التصحيح والمراجعة عملية مستمرة لن تتوقف، فهو يوطن نفسه على "الاستعداد" للتصحيح والتغيير كلما لزم الأمر، وسيستلزم الأمر حتماً في كل حركة.

وبعد كل هذا فقلبه خائف مترقب أتقبل الله عمله أم لا: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 60]

لذا كان من "علامات" الإخلاص لله وحده بلا شريك من عصبية جاهلية تقتضي منا أن نبحث نحن عن من يقيم عملنا تقييماً دقيقاً، ويبصرنا بمواطن الضعف والخلل والقصور، التي هي حتماً طبيعة أي عمل وفكر بشري.. وتظل عملية "التصحيح والتقويم" مستمرة ودائمة، وقائمة بصورة علمية مؤسساتية تبحث في عالم السنن، وتحققها.. وسنن الله لا تحابي أحداً، ولو كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما الشخصية المتعصبة: فنتيجة التصاقها بالذات.. يحدث لها نفور من عملية "التغيير" وتحصن نفسها بـ"الطهر والقداسة" لأنه من دون اعتبار قداسة الذات وطهارتها سيكون تبعاً لذلك ضرورة التصحيح والتغيير والمراجعة والاعتراف بالأخطاء، و"الحق المطلق" – الذي تدعيه لنفسها – لا يقبل مثل ذلك.. ولكن النفس – في الغالب – تعجز عن أن تدعي لنفسها الطهر والقداسة، فماذا تفعل؟

تُقدس المتطابق معها نفسياً من شيخ أو عالم، وبذلك تكون قد قدست نفسها بصورة غير مباشرة، عن طريق المتطابق معها نفسياً!! ويصبح أي مساس بالشيخ هو الجريمة الكبرى التي تستلزم الدفاع المستميت.. ليس عن الشيخ، وليس عن الفكرة المطروحة.. بل الدفاع المستميت عن الذات !!

وسيكون بالتبع إلقاء "الدناسة والحقارة" على من هو غير متطابق معها نفسياً، والتشكيك فيه، وفي عمله، وفي توجهه.. إلى أن يصل الأمر إلى الاتهام بالخيانة والقتل !!

والحقيقة الميل إلى مسألة "الطهر والقداسة" في النفس الإنسانية أمر يجنح بها إلى اعتقاد الألوهية في ذاتها! حقيقة الإنسان لا يمكنه أن يقول ذلك بلسان المقال.. لأنه لا يمكن أن يؤدي أي مقوم من مقومات الألوهية، لكنه يستطيع أن يقولها في داخل ذاته، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : 43] لقد جعل هذا الإنسان إلهه هو: ما تهواه ذاته وتميل إليه !

ويأتي العقاب الإلهي رداً على هذا الكِبر، بانحراف الإنسان عن سبيل الرشد، وعدم الهداية له.. إما بعدم معرفته ابتداء، وإما برؤية الرشد مع عدم القدرة على الاستجابة للهداية، والعجز عنها لكبر الذات، وانتفاخها.. حتى أكلت كيان الإنسان كله؛ فإن رؤية الرشد لا تكفي للهداية، إنما لا بد من هداية الله سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : 146]

ومن الكِبر، وانتفاخ الذات.. يدخل الشيطان: إن أهل الباطل لا يعتقدون أنهم يحملون باطلاً.. كلا، إنهم يعتبرون أنفسهم أهلاً للحق وللقداسة وللطهر.. يدخل الشيطان فيزين لهم كل شيء، ويقلب لهم ما يشاءون من حقائق، وفي الحقيقة فإن الشيطان لا يفعل شيئاً كبيراً سوى أنه يوفر عليهم عناء البحث عن مخرج لحالتهم، فيجيء الشيطان ليزين كل شيء: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43]

وإن الشيطان يلعب على هذين الوترين: إما "الطهر والقداسة"، وإما "التدنيس والتحقير".. فالطهر والقداسة لن تجعل الإنسان يصحح ما بنفسه: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 37] ومن يُحقر

نفسه: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ [العنكبوت : 23] ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87]

والتصور الإسلامي يجعل القلوب وجلة من خشية الله عند حمل الرسالة: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 60]

ويأخذها عندما تتدنس وتسقط: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : 53]

لتظل النفس في حركة مستمرة.. نحو التوبة، والتصحيح، والعمل الدائم الدؤب في حمل الرسالة.

وتكون أخوة الإيمان، وأواصر المحبة، ووشائج العقيدة، بديلة عن التعصب، والغل، والبغض، والحسد ويكون (الحب والنصرة والولاء والنصح) لجميع أبناء الملة الواحدة، وحملة الرسالة الواحدة، فيكون الحب بين أهل الملة الواحدة رابطة أساسية تؤهلهم لحمل الرسالة، ونفهم هنا مدلول هذا الحديث: عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ ؟ ، قَالَ : هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا ، فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }**" [سنن أبي داود/3063].

هذه المنزلة التي يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء! بسبب "الحب" الذي يجب أن يُظِل أهل الملة الواحدة.. حتى تتألف قلوبهم جميعاً لحمل رسالة الله إلى كل العالمين.

ويكون هذا الحب في الله، وهذه "الولاية" في الله هي أصل الاجتماع، وغيابها يعني الفساد الكبير، وتفوق الكافرين الذين هم "أولياء" بعض: ﴿ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[الأنفال : 73]

* * *

وتبدو خطورة الالتصاق بالذات وتقديسها والتعصب لها.. في قدرتها على إهلاك الإنسان نفسه، فلا مفر من عملية النقد، والتوبة، والتصحيح. واعتبار القداسة فيها يجنح بها بعيداً عن الصراط المستقيم.. في صور متعددة تعجز النفس البشرية، والعقول الملاحظة أن تراها، ولهذا جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ "الإخلاص" مفتاح قبول أي عمل، وهو شيء لا يعلمه إلا الله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47]

هذا الميزان الفريد الذي سيستطيع أن يُحلل ما بذات الإنسان، وما بقبله من إخلاص، وهل حقاً استقامت ذاته؟! وسيظهر ما خفي حتى على الإنسان نفسه.. في صورة مهيبة: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47]

ولهذا كانت دعوة المسلم الدائمة بالهداية لصراط الله المستقيم مسألة لا تتوقف لحظة في حياته !

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69]

❊ ❊ ❊

علاج التعصب:

(1) إلقاء الضوء الساطع على المساحات المظلمة والخفية من النفس الإنسانية.

(2) إمساك النفس عن الهروب والانفلات بحيلها النفسية في الدفاع عن نفسها، وتبرأة ساحتها.

(3) الصدق مع النفس، والمكاشفة الذاتية بين الإنسان وذاته.. والاعتراف بالقصور، والنقص، والجنوح، والكِبر.. والتوبة المتجردة التامة لله سبحانه.

(4) الاعتراف بعيوب الذات، وبتورمها، وانتفاخها.. والعمل على إصلاحها وتهذيبها.

(5) البحث عن القادرين على اكتشاف عيوب الذات، وخفض الجناح لهم.. والسماح لهم بالولوج إلى أعماق الإنسان، لإضاءة ما هو مظلم منها. سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

(6) الخروج من بيئة الاستبداد، ومعالجة آثاره وأمراضه المدمرة للنفس الإنسانية.

(7) التجرد والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودعاءه بتزكية النفس، وتطهيرها من كل شرك، ودنس.

(8) الخروج من ضيق الذات، والأيديولوجيا.. إلى سعة الرسالة، وكامل الدين.. وعدم التفرق فيه.

(9) الإثبات العملي أثناء حمل الرسالة.. أن الإنسان لا ينتظر منها أي جزاء مادي أو معنوي سوى ابتغاء مرضاة الله.

(10) تحرير الروح من سجن الذات، وتحرير الذات من سجن البخل والشح.

(11) تجديد معنى الإسلام، بحقيقة الاستسلام لله رب العالمين، حتى يُسكب ربنا جَلَّجَلَالُهُ في القلب بشاشة الإيمان، التي تُطهر النفس، وتقوي أواصر المحبة، ووشائج العقيدة، وأخوة الإيمان مع كل المسلمين.

مكمن الخطورة في الفكر المتعصب

(1) عدم القدرة على حمل رسالة الإسلام، وبعثه من جديد.

(2) عدم القدرة على التوبة، والنقد، والتصحيح، والتغيير.

(3) الجمود الفكري، والحياتي، وتكلس الحياة على صورة واحدة.

(4) ثغرة خطيرة يدخل منها عدو الملة كلها، ويدمر أهل التعصب من كل مذهب ببعضهم البعض.

(5) إزكاء روح الحسد، والتباغض، والحقد.. الذي يحلق الدين.

(6) الرؤية الجزئية الأحادية، والعجز عن حل المشكلات والقضايا المصيرية.

(7) انسداد أي أفق لرؤية مستقبلية تسمح برسم "استراتيجية – ارتيادية" لمواجهة تحديات الرسالة.

(8) اعتماد منهج "الإدانة والحكم على الآخرين" وتطهير الذات وتقديسها.

(9) إزكاء الفكر التبريري، وشيوعه، وفتح المجال للفشل المستمر، والخسارة المتتابعة دون إدراك جذور المشكلة.

(10) القضاء على التنوع الإنساني والحركي المطلوب والمناسب لحمل الرسالة.

(11) تشتيت الأمة، وتحزبها في جزر منعزلة عن بعضها، يعادي كل منها الآخر.

(12) الاستهانة بدماء وكرامة عموم المسلمين عند نشوب الصراع.

(13) الغرور بالنفس، وبالعمل.. واهتزاز الإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(14) العجز عن رؤية الأخطاء والكوارث.. فضلاً عن تصحيحها.

(15) ضمان تفوق "عدو الملة كلها" الذي عرف هذه الثغرة، والذي يستمر في عملية النقد والمراجعة والتصحيح لأعماله من خلال مؤسسات متخصصة.

(16) اختلاف الناس في الحق، ويأسهم من الوحدة، والتلاقي، والتآلف.

(17) تقطيع أواصر المحبة، ووشائج العقيدة، وعرى الإيمان.

(18) ضياع التجارب هباءً فلا يتم التعلم ولا الاستفادة منها، وتمر تضحياتها بلا قيمة في حياتنا.

(19) هروب العقول المبدعة، والمُفكرة.. وضياع طاقاتها تحت وطأة التعصب. ورؤية الحق بصورة جزئية.

(20) نشأة "العصبية الجاهلية – الأيديولوجيا – العصبية الذاتية والفكرية"؛ وتصبح خطراً على الإسلام.. وسيظهر الخطر عاجلاً أو أجلاً في السلوك والواقع.. سواء أكان في ميدان (الدعوة أو السياسة أوالجهاد) فالعصبية الجاهلية تطعن "الرسالة" في القلب.

(21) العجز عن القيام بالحق والعدل الرباني.. الذي هو الهدف الأسمى من الرسالة.

❊ ❊ ❊

روابط ذات صلة:

- خطورة الفكر التبريري على بعث الإسلام من جديد.
- الاتجاهات النفسية للحركة الإسلامية.
- الأمة.. ما هي؟
- الفرق بين الشخصية الرسالية والحزبية.